

ديكارت وعصره

نبدأ دراستنا بتحديد مركز ديكارت في الفكر الفرنسي وذلك بمقارنته بمظاهر التفكير اللاحقة له وبمظاهره السابقة . ولعلنا نجد في دراستنا لپسكال^(١) معاصر ديكارت الأصغر مادة طريفة لهذه المقارنة .

ولد رينيه ديكارت René Descartes في عام ١٥٩٦ وتوفي في عام ١٦٥٠ . فامتدت حياته أثناء حكمي هنري الرابع ولويس الثالث عشر ملكي فرنسا ، ثم بعد وفاة الأخير حتى أوائل عصر الفروند La Fronde ووزارة مزاران . أما بليزپسكال (١٦٢٣ - ١٦٦١) فقد ابتدأت حياته الفكرية في نهاية حكم لويس الثالث عشر ، وامتدت أثناء وزارة ما زارن وسنوات حرب الفروند . وكانت هذه سنوات ثورة وقلق في فرنسا ، تركت أثرها في تأليف پسكال وتفكيره .

وقد رأينا عند پسكال نوعا من التوتر والقلق لا نجدهما عند ديكارت . وكان لهذا التوتر أثر في الفكر الفرنسي غير الأثر الذي تركه ديكارت . وقد أيقظ پسكال في نفوس المفكرين روح الثورة على الأوضاع والتقاليد السياسية والأدبية والدينية أيضاً .

أما تفكير ديكارت وتأليفه ، فقد اتفقا وزمن عظمة في فرنسا وشيئاً من من الاستقرار . بل كان هذا التفكير والتأليف من أسباب تلك العظمة وذلك الاستقرار . وتقع تبعة أعداد وتأسيس العصر الكلاسيكي كله على عاتق ديكارت . فهو الذي أشاع النظام في الأدب والفكر الفلسفي الفرنسي وفي الفكر السياسي أو في بعض نواحيه على الأقل .

(١) راجع كتابنا پسكال (في مجموعة نوايغ الفكر الغرب : دار المعارف ١٩٥٦) وخاصة

من ٢٧ - ١١ .

(٢) وهو الذي يبدأ عند اعتلاء لويس الرابع عشر عرش فرنسا (١٦٦٠) ويستمر على الأقل حتى أواسط القرن الثامن عشر .

أما پسكال ، فقد كان موقفه غريباً ، بين عصر ابتكار وتأسيس ، وعصر إنشاء وتنظيم . ولا شك في أن حركات الابتكار والتأسيس التي امتاز بها عصر ديكارت وكورني^١ Corneille في الفلسفة والأدب ، أدت إلى اتخاذ الأسلوب الكلاسي في مظاهره المختلفة . وكأن پسكال قد فصل في الفكر الفرنسي بين فترة التأسيس المذكورة وفترة التشييد والتنظيم ، وكأن عملية التفتيت في الأسلوب الفرنسي وفي الروح النظامية الفرنسية ، ابتدأت عند پسكال وقبل قيام العصر الكلاسي بالمعنى الدقيق .

جاء ديكارت بعد عدة تيارات فكرية عنيفة قامت في أوروبا منذ ابتداء القرن السادس عشر ، وجاءت فلسفة ديكارت فحولت تلك التيارات تحويلاً جوهرياً .

والقرن السادس عشر عصر النهضة والإحياء والإصلاح ، فهو عصر التجديد . ولن ينهى التجديد ، ولن يصبح الحديد حديثاً ، إلا على يد رجال من أمثال ديكارت .

ومحاولات عصر النهضة ومغامراته كثيرة متنوعة ، لنذكر منها بإيجاز ، ما كان مرتبطاً بالدين والعلم والفلسفة والفن ، ولنذكر بوجه خاص رد فعل ديكارت عليها .

وقد أشرنا في كتابنا عن پسكال^(١) إلى أساس الدعوة البروتستانتية في الدين : نقصد القضاء على جميع الوسطاء بين الإنسان والله ، بين الأنا والله ، والتقرير بأن الإنسان فريد وحيد ، أمام إله العزة والكمال . وقد أدى هذا التقرير إلى شيء من الذعر والقلق أصاب النفوس .

وأغرب الأمر عند رجل مثل ديكارت أنه هو أيضاً يستغنى في الفلسفة عن الوسطاء بين النفس والحقيقة المطلقة ، وأنه مع ذلك يحاول التقرب إلى الله في طمأنينة العقل التامة . وديكارت في تحويله الفلسفي لحركة الإصلاح الديني

من الذعر إلى الطمأنينة ، قد ساهم بدوره وفي وقته ، في حركة الرد الكاثوليكي على هذا الإصلاح ، أى في حركة الإصلاح الكاثوليكي ، التى ابتدأت عشرات من السنين قبله . وقد أشرنا فى كتابنا المذكور ^(١) إلى مختلف التيارات فى ذلك الإصلاح الثانى ، تلك التيارات التى انتهت عند رجال پور رويال Port-Royal وعند بسكال نفسه ، بثورة على الكنيسة الكاثوليكية وعلى اليسوعيين بنوع خاص ، أى على هؤلاء الذين ابتدأت عندهم حركة الإصلاح الكاثوليكي .

وديكرت كاثوليكي لم يجد مرة فى حياته عن مبادئ الكنيسة . وديكرت تلميذ اليسوعيين . واليسوعيون جماعة دينية تأسست فى القرن السادس عشر على يد القديس اغناطيوس اللوايولى الأسباني (١٤٩١ - ١٥٥٦) ، قاموا بدور خطير فى مقاومة الإصلاح البروتستانتي ، هادفين إلى تجديد الكنيسة الكاثوليكية ، وذلك عن طريق ارشاد وتوجيه المؤمنين من الحكام والقواد ، توجيهها عملياً سياسياً بوجه عام ، وعن طريق تربية أولادهم وتثقيفهم بوجه خاص . ولهذا الغرض عملوا منذ تأسيس جماعتهم على إنشاء المدارس والجامعات فى مختلف أنحاء أوربا وخاصة فى ألمانيا وبلجيكا وفرنسا. ^(٢) ولا شك فى أن اليسوعيين قد ساهموا بتربيتهم هذه فى تلك الطمأنينة التى تمتع بها ديكرت ، وفى جو الثقة الذى عاش فيه . - وهدفا التربية اليسوعية هما تدعيم الإرادة من ناحية ، وتجنيب العقل البحث فى الأصول الدينية من ناحية أخرى . ويتحقق ذلك ، بتوجيه النفس نحو الطاعة لرؤساء الكنيسة وأحكامها . ولتلك التربية أساس فلسفى دينى مزدوج ، قرره القديس أغناطيرس نفسه : فمن ناحية « الإنسان مخلوق » homo creatus est ، 'مُخلَقٌ' لتمجيد الله وخدمته ، لا للبحث فى أسرار الدين ، ولا لمحاولة فهم ما كان مغلقاً عليه فى هذه الحياة ؛

(١) انظر بسكال ٦١ - ١١٤

(٢) راجع كتاب رولان موفيه فى القرنين السادس والسابع عشر ٨٩ - ٩١ (باريس

Roland Mousnier : XVI et XVII Siècles, Paris 1954.

١٩٥٤

والإنسان من ناحية أخرى ، حر في إرادته ، وعليه وحده تقع تبعة عمله . ولذلك كان قادراً على إظهار حبه لله ، بالعمل والخدمة ، لا بالتأمل العقلي والخوض الصوفي . وكان القديس لا يطلب في صلواته إلى الله « أن يشرفه بزيارات خاصة » إنما كان يتوسل إليه أن يكلفه بالخدمة قبل أى شئ آخر ، ففى هذا ما يتفق وطبيعة المخلوق^(١) .

وقد اعتمد اليسوعيون على هذا التوجيه في محاربة روح التمرد والعصيان التي نشأت عن تعاليم المصلحين البروتستانت والتي تمثلت بنوع خاص في محاولة القضاء على الوسطاء بين الله والناس ، وعلى الكنيسة بالتالى ، والتي انتهت بانفراد الإنسان وانفصاله عن الله . وطبيعى أن يعمل الكاثوليك على إرجاع الطمأنينة في النفس بتقوية الإرادة ، وبتعويد الإنسان الخضوع لتعاليم الكنيسة حتى إن لم يفهم تلك التعاليم . وسرى لتوجيه اليسوعيين أثراً عظيماً لا في حياة ديكارت فحسب بل في تفكيره وفلسفته أيضاً .

أما في الميدان العلمى ، فالمحاولات والمغامرات ، ابتدأت أثناء القرن الخامس عشر ، وبلغت ذروتها عند جاليليو معاصر ديكارت . وهى على أنواع ثلاثة : أولها ، مغامرات الرحالة والجغرافيين ، الذين اكتشفوا فى الأرض مناطق وشعوباً وحاجيات لم تكن معروفة من قبل . والثانى اكتشافات علم الفلك : منها ما يتعلق بمسار الأفلاك وخطوط حركاتها ، كإحلال المحدثين الحركة الأهليجية محل الحركة الدائرية المعروفة عند الأقدمين . ومن اكتشافات هذا العلم ، ما يتعلق بالمسافات الهائلة بين الأفلاك ، أو بينها وبين الشمس ، أو بينها وبين الأرض . - كل هذا قد تم بفضل جرأة لم يبلغها الأقدمون فى العلوم الرياضية ، وبفضل آلات لم يعرفوها .

والنوع الثالث من المحاولات العلمية مرتبط بتجديد منهج العلم وروحه بوجه عام . وقد ابتدأت البحوث المنهجية والمنطقية أثناء القرن السادس عشر عند راموس Ramus الذى انتقد منطق أرسطو ومهد كما سرى لانتقاد ديكارت

(١) راجع الكيه في كتابه « الاكتشاف الميثافيزيق للإنسان عند ديكارت » باريس ١٩٥٠

أعظم التهديد . ثم أستمريت تلك البحوث عند فرنسيس بيكون صاحب « الأرجانون الجديد » . وإن كان عيب بيكون أنه لم يصل إلى اكتشاف علمي جديد فقد عمل للعلم الطبيعي التجريبي أعظم دعاية يمكن عملها ، وشجع بذلك الدعاية العلماء الإنجليز فيما بعد ، على اتخاذ التجربة عماداً لبحوثهم . - إلا أن أعظم وأخصب مظاهر المهج قبل ديكارت موجودة عند معاصرة جاليليو . فهو قد اعتمد على الرياضة في وضع الفرض العلمي والبرهنة عليه ، واتجه إلى اعتبار الحركة النقلية ، وهي أقرب الحركات إلى التعبير الرياضي ، أساس التغير في العالم الطبيعي كله . واتجه من هذا الاعتبار الأخير ، إلى المذهب الآلي في العلم ، واتخذ الطريق بذلك إلى الفلسفة الميكانيكية التي ستكون فلسفة ديكارت . وفي نفس الوقت الذي اتجه فيه جاليليو إلى التفسير الآلي في الطبيعة ، كان الطبيب البريطاني وليم هارفي يقوم بدراسة الأوعية الدموية ، وانتهى إلى مبدأ دوران الدم ، ذلك المبدأ الذي بنى ديكارت عليه قراره في أن الجسم الإنساني ، كجميع أجسام الحيوانات ، ذو تركيب ميكانيكي وأنه شبيه بالأجسام التي تركبها صناعتنا^(١) .

هذا شيء من الاكتشافات العلمية السابقة على ديكارت والتي استوعبها ديكارت في علمه ، دون أن يغير فيها شيئاً يذكر ، سوى أنه وضعها في كيان واحد ، وربطها بالمنهج الواضح الذي اختطه للبحث العلمي ، وأنه عمل على تأسيسها تأسيساً فلسفياً .

أما الميدان الفلسفي فقد اتخذت المغامرات فيه اتجاهين قد يبدو لأول وهلة تعارضهما : الأول اتجاه الشك الذي اتخذه مونتيني Montaigne ، ومن ورائه ديكارت وپسكال . وكان هذا الاتجاه شائعاً بين فرنسا وإيطاليا وأسبانيا

(١) راجع كتاب رولان مونييه في القرنين السادس والسابع عشر *XVI^e et XVII^e Siècles*

في وقت واحد . - والشك شعور الإنسان بعجزه ، راجع لا إلى الأغلاط التي يقع فيها الحسّ أو العقل ، كما كان شك اليونانيين القدماء ، إنما إلى تمرد على السلطات بوجه عام ، وعلى الكنيسة بوجه خاص ، وإلى ما يؤدي إليه هذا التمرد من انفراد وعزلة . ولكن الشك راجع أيضاً إلى اكتشافات الرحالة والجغرافيين والعلماء لمعالم في الأرض كانت مجهولة ، ولعالم أخرى في الكون أدى التنبه إليها إلى شعور الإنسان بصغره وحقارته أمام العالم . - أما الاتجاه الثاني فهو ذلك الذي اتخذه بعض فلاسفة إيطاليا في القرن السادس عشر وحاولوا فيه تجديد التراث اليوناني القديم بوجه عام ، وتراث الأفلاطونيين المحدثين بوجه خاص . ومعروف أن هذه المحاولة الفلسفية لم تُجْدِ نفعاً لأنها كانت خصبة في ظاهرها ، عقيمة في حقيقتها . وكانت عقيمة لأنها لم تعمل للعلم ولاكتشافاته الأخيرة حساباً : فرجال أمثال جيوردانو برونو Giordano Bruno الذي أُحرق في روما ، وتوماس كامبانيلا Campanella ، الذي سُجنَ في إيطاليا وتوفي منفيّاً في فرنسا ، هؤلاء الرجال الذين دعوا إلى الرجوع إلى بعض مواقف مدرسة الإسكندرية الأفلاطونية ، من سريان القوة الحية في العالم المادي ، ومن وحدة الوجود تقضي على التمييز بين الخالق والمخلوق ، إن هؤلاء الرجال قد تجاهلوا العلم الحديث ، ووقفوا عند نتائج الفلسفة اليونانية القديمة .

نقول إنه مهما قام من تعارض بين هؤلاء الفلاسفة والشكّاء في المبادئ ، فالمغامرة الفلسفية من نوع واحد : كلا الفلسفتين الشكية والأفلاطونية تعادى العقل ، وتنادى بملكات أخرى غير كالبصيرة السحرية عند كامبانيلا ، والغريزة الحيوانية عند مونتيني ، والإيمان الصوفي عند شارون Charron .

إلا أن شك رجال القرن السادس عشر شك مغالين مسرفين ، كما أن ادعاءات أفلاطوني عصر النهضة مظاهر قوة وطموح هائل . بل إن محاولات البروتستانت في الدين وما أدت إليه من خوف وقلق ، ومغامرات العلماء وما أدت إليه من شك في الفلسفة ، ومغامرات برونو وكامبانيلا ، كل هذا

مظهر لعصر النهضة ، لعصر الأحياء الذى كان حقاً عصر حياة متدفقة مسرفة فى التدفق ، لا تعرف قانوناً ولا تتبع قاعدة . فالتائج السلبية والهدامة التى قد أدت إليها تلك المغامرات لم تكن على الإطلاق مظاهر ضعف أو فقر . بل لم تكن مواقف هؤلاء الشكاك مشابهة لمواقف شكاك القرن الثامن عشر أمثال هيوم Hume ، لم تكن مظاهر ارتياب وتساؤل مستمرين . إنما كانت هى أيضاً مظاهر حياة وقوة وعنف . وحروب القرن السادس عشر المستمرة ، وحرب الثلاثين عاما فى القرن السابع عشر ، تلك الحروب كلها ، دليل ملموس على ذلك الإسراف فى القوة ، والتبذير فى الحياة ، وعلى إهمال فضائل العقل المتواضعة من تدبير ونظام .

وإن لم يكن مجالنا موضع الكلام عن المظهر السياسى للإسراف والتبذير ، فهناك مجال لا بد من الإشارة إليه ، ويظهر بمناسبه معنى العبقرية الديكارتية : نقصد مجال الفن .

ويجمع المؤرخون على أن الفن الأوروبى فى هذا العصر هو المعروف بالفن الغريب أو بالباروك Le Baroque . وهو فن يمتاز بأن وحدة الإلهام وقدرة الفنان على التنسيق والتنظيم فيه ، لا تظهران بقدر ما يظهر فيه تنوع ذلك الإلهام وغناه ، وتنوع تعبيراته واختلافها بينها ، إلى حد التناقض . ومن مظاهره معمار كنائس إيطاليا ، وما ماثلها من كنائس فرنسا فى ذلك الوقت أو منازل بلجيكا وهولندا . ويمتاز هذا المعمار بالتعقد ، سواء كان فى الواجهات التى فقدت وحدتها وانسجامها ، أو فى الأعمدة التى أصبحت ملتوية التواء حلزونياً ، أو فى القباب التى تعقدت أشد التعقد . ويظهر هذا بنوع خاص فيما تحمله أجزاء البناء هذه من زينة وزخرفة ، وفى التماثيل التى تغطى الجدران فى الخارج والداخل . فالزخرفة متنوعة فى التفاصيل ، والتماثيل ذاتها متطرفة فى التعبير عن تفاصيل الجسم الذى تمثله ^(١).

واوحات المصورين وخاصة في بلجيكا وهولندا هي أروع ما يظهر فيه طابع الباروك هذا وخاصة لوحات روبانسن Rubens التي تمتاز بالقوة والتدفق الحيوى والإسراف والتنوع ، سواء كان ذلك فى تصوير الجسم الإنسانى أو فى اختيار مناظر الطبيعة أو فى الألوان ذاتها . فالمرأة فى لوحات روبانسن من النوع الفلمنكى الضخم ، وكأنها تشارك فى ضخامتها وقوتها وحيويتها الطبيعة كلها . واوحاته فى حياة المسيح وخاصة فى آلامه وصابه ، تمتاز بالطابع الكونى هذا : فهى لا تعبر عن أحداث تاريخية مؤثرة إنما عن معان عالمية كونية خارقة . والضوء فى اللوحة يجرى سيالا كأنه تيار الحياة العالمية ذاتها^(١) .

وربما وجب لفهم هذا وافهم علاقته بفيلسوفنا أن نقارن بين ما نقوله عن لوحات روبانسن وبين اوحة لفرانز هالس Franz Hals الهولندى تمثل ديكارت . ووحة هالس لديكارت مهما كان من قيمتها الفنية تصور عبقرية الفيلسوف : فيها قوة جسم ، وشكيمة أرادة ، وكبرياء نفس . إلا أنها تمتاز قبل أى شئء آخر باتجاه الرأس ، ونظرة العينين بنوع خاص . إنها تظهر وحدة عقلية حاكمة ضابطة لكل ما فى الإنسان من حيوية وقوة ونزعات .

وما يظهر لنا فى تلك اللوحة رمز واضح على المقارنة التى نشير إليها ، بين ديكارت ، وبين العصر الأوروبى الذى نشأ فيه والعصر السابق عليه مباشرة . يمتاز هذان العصران بالتدفق الحيوى والإسراف والتبذير وتعتمد حضارتهما على قوى إنسانية لا نصيب كبير للعقل فيها . أما ديكارت فإن لم تنقصه القوة والحيوية إلا أن جميع مظاهرها عنده خاضعة لعقل مدبر وإرادة حاكمة .